في التاريخ السياسي

ماذا في روسيا السوفيتية

الصراع بين البلشفية والرجعية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يتساءل الناس عما يحدث في روسيا السوفيتية، وما هو سر هذه المحاكمات الدموية التي تترى منذ عام في موسكو، والتي يقبض فيها على أكابر الزعماء جماعات، ثم يعدمون بعد محاكمة مرتبة موجزة؟ ففي الصيف الماضي قبض على عدة من الزعماء وعلى رأسهم سينو فييف رئيس الدولة الشيوعية الأسبق، وحوكموا بتهمة التآمر على سلامة الدولة بتحريض ليون تروتسكي زعيم البلشفية المنفي، وأعدموا بعد محاكمة قصيرة؛ ثم عقدت خلال الأشهر الأخيرة عدة محاكمات مماثلة، حكم فيها بالموت أو السجن على عدة أخر من الزعماء البارزين مثل العلامة الفيلسوف بوخارين رئيس الدولة الشيوعية السابق، وكارل رادك أعظم كتاب البلشفية المعاصرين، وياجودا مدير البوليس السري وغيرهم؛ ومنذ أسابيع قلائل امتدت يد المطاردة إلى الجيش الأحمر وقبض على عدة من قادته وفي مقدمتهم المارشال توخاتشفسكي؛ وحوكموا بسرعة مدهشة بتهمة الاتصال بدولة أجنبية معادية لروسيا وإمدادها بمعلومات عن الجيش الأحمر وعن أسرار روسيا العسكرية، ثم أعدموا ليلة صدور الحكم؛ وأذاعت الأنباء على أثر ذلك أن بوادر التمرد ظهرت في بعض وحدات الجيش الأحمر، وأن الثورة نشبت بالفعل في بعض أنحاء روسيا، وأن طاغية الكرملين ستالين يلجأ في إخماد التذمر أو الهياج إلى أروع الوسائل، وهكذا؛ فما هي عوامل هذا الاضطراب الذي يتخذه البعض نذيراً بانهيار النظام السوفيتي؟ وما هي الحقيقة وراء ذلك كله؟

إن الثورة البلشفية التي سحقت عرش القياصرة منذ سنة ١٩١٧، وبسطت على روسيا سيادة «الكتلة العاملة»، واتخذتها ميداناً للتجربة الشيوعية، لم تصل بعد إلى نهايتها؛ وما زالت روسيا السوفيتية تعيش منذ عشرين عاماً في ظل نظم ثورية تسير من طور إلى طور؛ وهذا الصراع الذي يضطرم اليوم بين ستالين وبين جماعة من خصومه، والذي تبدو بوادره في تلك المحاكمات الدموية الرائعة، إنما هو نذير تطور جديد في الثورة البلشفية لم تكتمل عوامله بعد؛ ويلاحظ أن هذه الاجراءات الدموية التي يجد ستالين في اتخاذها إنما تقترن بصدور الدستور السوفيتي الجديد الذي تم وضعه في الصيف الماضي، ثم صدر في ديسمبر سنة ١٩٣٦. بيد أنه يجب لكي نفهم عوامل هذا التطور الأخير، أن نرتد إلى الوراء، لنرى كيف نشأ الصراع بين ستالين وخصومه، وكيف أن هذا الصراع يرتبط أشد الارتباط بتطور التجربة الشيوعية في روسيا

كانت الثورة البلشفية تقوم عند بدايتها على دعائم ثلاثة: الشيوعية المطلقة، وسيادة الكتلة العاملة، وإضرام نار الثورة العالمية؛ وكان لنين رأس المذهب الجديد وزعيم الدولة الشيوعية الجديدة يستمد كل وحيه من تعاليم إمام المذهب وأستاذه الأكبر كارل ماركس؛ ولكن التجربة الشيوعية لم تلبث أن اصطدمت من الوجهة العملية بمصاعب اقتصادية واجتماعية خطيرة، ولم يلبث لنين نفسه أن اقتنع بوجوب الاعتدال في تطبيق التجربة والأخذ بسياسة اقتصادية جديدة تتفق فيها بعض المبادئ الشيوعية المتطرفة، وتدمج فيها بعض المبادئ الرأسمالية من (البورجوازية). وبدأ لنين بتطبيق هذه السياسة الجديدة منذ سنة ١٩٢١ ولكنه لم يلبث حتى توفي (يناير سنة ١٩٢٤) وكانت وفاة لنين في الواقع فاتحة هذا الصراع الذي تجوز الثورة البلشفية أطواره من ذلك الحين؛ فقد تولى مقاليد الأمور بعد لنين ثلاثة من خاصة أصدقائه وأعوانه هم سنوفييف وكامنيف وستالين؛ ولكن قطباً آخر من أقطاب البلشفية هو ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر (الجيش البلشفي) وأعظم رجل في الثورة بعد لنين كان يسهر على مصير الثورة ويحاول أن يسير دفتها طبق آرائه، وبينما كان ستالين وزملاؤه يتوسعون شيئاً فشيئاً في تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، وهي تنطوي بالأخص على الاعتراف بالملكية الصغيرة، ومهادنة الدول الرأسمالية والتعامل معها، ومراعاة الاعتبارات الزراعية والتجارية والصناعية في الانتاج، كان تروتسكي يعمل لمعارضة هذه السياسة ويرى أنها خيانة للثورة وللمبادئ الشيوعية الصحيحة، وكان تروتسكي يشدد بالأخص في وجوب اضرام نار الثورة العالمية ويرى أنها هي السبيل الوحيد

لظافر الاشتراكية ، هد حين أن ستالين وفريقه يرون الاقتصار على تطبيق التجربة الاشـ كية فى روسيا وحدها ويرون نجاحها محققاً دون الثورة العالمية : كان تروتسكى بماضيه الثورى الحافل وصداقته المؤثلة للنين ، وما من فضل عظيم فى نجاح الثورة البلشفية ، ونفوذ قوى فى الجيش الأحمر ، عماد الثوريين المتطرفين ومعقد آمالهم ، ولكنه لم يحسن استخدام هذا النفوذ وتوجيهه ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاع ستالين وفريقه أن يستغلوا الظروف الاقتصادية ، وأن يعتمدوا فى تنفيذ سياستهم على الرجال الاداريين ؛ واستمر النضال بين الفريقين يشتد ويتفاقم ، ولكن ستالين استطاع أن يقوى مركزه ونفوذه شيئاً فشيئاً داخل الحزب الشيوعى وخارجه ، وأن يعمل على إضعاف خصومه وتسفيه معارضتهم وسياستهم ، ولما شعر بأنه غدا هو الأقوى والأشد ساعداً ونفوذاً ، رفع القناع فجأة ، وأخذ يطارد تروتسكى وشيعته جهاراً ؛ وكان يعتمد فى البدأ على مؤازرة عدة من أكابر الزعماء مثل سينوفييف وكامنيف وتومسكى وريكوف وغيرهم ، فلما شعر أنه يستطيع العمل دونهم انقلب إلى مطاردتهم ، فانضم هؤلاء إلى الفريق المعارض ؛ ونزل ستالين وشيعته إلى ميدان النضال ، واستطاع تباعاً أن يقضى على خصومه وأن يخرجهم من بحظيرة الحزب الشيوعى الذى هو كل شىء فى حياة روسيا العامة ، والذى يسيطر ستالين باعتباره سكرتيره العام على توجيهه واستخدام نفوذه وسلطانه ؛ ثم خطا ستالين خطوة أخرى ، فنفى تروتسكى وشرد الزعماء من أنصاره ، وشملت شملت المعارضة كلها (سنة ١٩٢٩) واستأثر عندئذ بكل نفوذ وسلطة وغدا سيد روسيا وزعيمها القوى ، وأخذ يوجهها فى الطريق الجديد الذى اختاره لها ؛ فوضع مشروع السنوات الخمس لتنظيم الانتاج الروسى ، وهو المشروع الذى قلدته فيه ألمانيا وإيطاليا بعد ، وعمل على التقرب من الدول الغربية ، وكان من أثر هذه السياسة أن انضمت روسيا إلى عصبة الأمم ، وتفاهمت مع فرنسا تفاهما انتهى بعقد الميثاق الروسى الفرنسى ؛ وجد ستالين فى تسليح روسيا ولا سيما منذ قيام الوطنية الاشتراكية (الهتلرية) فى ألمانيا حتى غدت اليوم أقوى دول القارة فى التسليحات البرية والجوية ، وبذلك اجتنبت روسيا عزلتها السياسية القديمة ، واتخذت مكانتها فى السياسة الأوربية العامة إلى جانب الكتلة الديموقراطية ، وأضحت عاملا حاسماً فى التوازن الأوربى

على أن المعارضة القديمة التى لبث تروتسكى روحها وزعيمها لم تخمد ولم تسحق ، فقد استمر تروتسكى فى منفاه فى مختلف البلاد الأوربية يشهر بقلمه ولسانه حرباً عواناً على ستالين وسياسته ، ويذكى بنفوذه القديم روح النضال فى أنصاره داخل روسيا ؛ وهو الآن فى منفاه النائى بالمكسيك ، وبالرغم من عجزه وشيخوخته ما يزال يشهر سهام الخصومة والنضال على عدوه ؛ ويقول الترو تسكيون إن ستالين قد سحق الثورة وبدد تراث لنين ، وبسط على روسيا نوعاً من الاشتراكية الوطنية التى بسطها الهتلريون على ألمانيا ، أو بعبارة أخرى بسط عليها نوعاً من الدكتاتورية البورجوازية (الرأسمالية) ، وارتكب بذلك أعظم خيانة لقضية الثورة البلشفية والثورة العالمية

والواقع أن الدستور الجديد الذى صدق عليه مؤتمر السوفيت الأعلى فى ٥ ديسمبر الماضى يدلل بروحه ونصوصه على هذه الحقيقة التى يتخذها التروتسكيون محوراً للخصومة والنضال ، وهو أن الثورة الشيوعية قد انتهت ، وانتهت كذلك فكرة الثورة العالمية . ذلك أن الدستور السوفيتى الجديد يعترف صراحة بحق الملكية الفردية التى يعتبر إلغاؤها أساساً جوهرياً للمجتمع الشيوعى ؛ ويشمل الاعتراف بهذا الحق ملكية الايرادات الناتجة عن العمل وملكية المساكن الشخصية والأثاث المنزلى وحاجات الحياة اليومية ، ويشمل أيضاً حق الميراث ؛ ويمنح حق الملكية بالأخص للطبقات الممتازة فى الدولة كالموظفين وأعضاء الحزب الشيوعى ، والذين حصلوا على أوسمة من ذوى المواهب والخدمات الممتازة ؛ ومن جهة أخرى فان الدستور الجديد يعترف بأن الحزب الشيوعى هو مصدر السلطات ، ويحمى الدكتاتورية التى يبسطها على روسيا فى الوقت الحاضر ، ويؤيد بذلك طغيان ستالين زعيمه وسكرتيره العام ؛ ثم إن الدستور الجديد لا يعترف بحرية الصحافة والرأى والاجتماع كحق للأفراد ، وإنما يقرر أن الدولة هى التى تكفلها وهى التى تمد الشعب بالنشرات والصحف والخطباء وغيرهم ، وهى التى تسيطر بذلك على عقل الشعب وروحه ، وتسيره حيثما شاءت

هذه هى أسس الدستور السوفيتى الجديد ؛ فأى فرق بينها وبين الفاشستية الايطالية ، أو الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) الألمانية ؟ انه الطغيان الحزبى المطلق ؛ وإنه لفناء الحقوق والحريات العامة كلها فى شخص الدولة ، والدولة هى الحزب